١٥- فتح مكة

فتح مكة

هو ثمرة الدعوة التي بدأها رسول الله ﷺ في ربوع مكة ثلاث سنوات سرًا لا يستطيع أن يجهر بها ما بين نزول قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر:١-٧]، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر:٩٤]. ثم جهر بالدعوة إلى الله وسب آلهة القوم، وبين ضلالهم في عبادتها، وتعرض ﷺ هو وصحبه الكرام رضي الله عنهم للإيذاء والاستهزاء، والتعذيب والتكذيب، ثم هاجر ﷺ هو وصاحبه «ثاني اثنين إذ هما في الغار» خفية من قومه وعشيرته التي أجمعت على قتله، انتصارًا للآلهة الباطلة وحمية وعصبية للباطل، ثم تأسست دولة الإسلام بالمدينة المنورة، وبدأ النبي ﷺ في إقامة المجتمع المسلم على المحبة والإخاء والتناصر والتناصح، وحالف يهود المدينة وكثيرًا من القبائل المحيطة، ثم أذن له في الجهاد بنزول قوله الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٣٩-٤٠].

فما كان يكاد يمر شهر إلا وفيه غزوة أو سرية من سرايا رسول الله ﷺ وكانت الحرب بينه وبين أعداء الله سِجالًا تارة ينصره الله نصرًا مؤزرًا كما حدث في بدر فيغنمون ويسلمون وتقوي شوكتهم ويَهابهم أعداؤهم، وتارةٌ يدل عليهم فيمتحنون بالشدة والبلاء، ويتخذ الله الشهداء، ويمحص قلوبهم ويربيهم، ويمحق أعداءهم كما حدث في أحد، ولكن الإيمان له قوة ساحرة إذا خالطت بشاشته القلوب ووجد العبد حلاوته فإنه

يشغل به عن الجسد وما يتعرض له من شدةٍ وبلاء، فإن سعادة المؤمنين في قلوبهم، فبعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة التي سقط فيها من صفوف المسلمين من سقط، وأعز الله وأكرم من شاء من الذين كانوا حربًا على الإسلام وأهله بالإسلام، حتى صار من جنده المخلصين، وكان النبي ﷺ في هدنة مع قريش بحسب صلح الحديبية الذي كان سببًا في الفتح العظيم، بل كان في نفسه فتحًا مبينًا، وقد دخل في حلف قريش بنو بكر، ودخلت خُزاعة في حِلف رسول الله ﷺ ، فعدت بنو بكر على خزاعة فبيتوهم وقتلوا منهم، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم من قريش من قاتل فنقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ ، فكان هذا هو السبب المباشر في الفتح العظيم، الذي وصفه ابن القيم رحمه الله بقوله: الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عِزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجًا، خرج له رسول الله ﷺ بكتائب الإسلام وجنود الرحمن سنة ثمان لعشر مضين من رمضان واستعمل على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري، وقال ابن سعد: بل استعمل عبدالله بن أم مكتوم[1].

وكان عدد من خرج مع النبي ﷺ عشرة آلاف من جنود الإسلام من سائر القبائل، وكان النبي صائمًا حتى بلغ الكديد أفطر وأفطروا.

عن ابن عباس رضي الله عنهما : «أن النبي ﷺ خرج في رمضان من المدينة ومعه عشرة آلاف، وذلك على رأس ثمان سنين ونصف من مقدمة المدينة، فسار هو ومن معه من المسلمين إلى مكة يصوم ويصومون، حتى بلغ الكديد وهو بين عسفان وقديد أفطر وأفطروا»[2].

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٣٩٤).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٥٩٥) «المغازي».

وأحب النبي ﷺ أن يباغت قريشًا ويفاجئهم بمقدمه في هذه الألوف المؤمنة حتى يستسلموا ويسلموا، فلا يكون هناك قتال ومقاومة فأرسل أحد الصحابة الذين سبقت لهم من الله الحسنى، وتشرف بشهود بدر كتابًا إلى أهل مكة يخبرهم بخبر رسول الله ﷺ ونترك كلامنا لما رواه البخاري عن علي رضي الله عنه قال: «بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها. قال: فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، قال: فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : «**يا حاطب ما هذا؟**» قال: يا رسول الله لا تعجل علي: إني كنت امرءًا ملصقًا في قريش يقول كنت حليفًا ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم بها قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذا فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام فقال رسول الله ﷺ : «**أما إنه قد صدقكم**»، فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «**إنه قد شهد بدرًا. وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم. فقد غفرت لكم**» فأنزل الله السورة﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة:١][(١)].

(١) رواه البخاري (٧/ ٥٩٢) «المغازي».

فشفع لهذا الصحابي الجليل شهوده بدرًا وكانت هذه السيئة مغمورة بالحسنة العظيمة التي نالها يوم بدر.

وسار الجيش المبارك يطوي الفيافي والقِفار قاصدًا أم القرى وبيت الله الحرام، وكانت القبائل قد تركوا رسول الله مع قومه يقولون إن انتصر عليه قومه فقد كفونا قتاله، وإن ظهر على قومه دل على صِدق رسالته، فكان فتح مكة لذلك فتحًا عظيمًا بل كان علامة على اقتراب أجل الحبيب محمد ﷺ حيث قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١، ٣].

واقتربت جحافل الإسلام من مكة وخرج أبو سفيان عظيم قريش وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يلتمسون الأخبار فوقعوا أسرى للجيش المبارك فكان من شأنهم مما قصَّهُ عروة بن الزبير.

عن هشام بن عروة عن أبيه قال: «لما سار رسول الله ﷺ عام الفتح، فبلغ ذلك قريشًا خرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله ﷺ، فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مر الظهران، فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة، فقال ابو سفيان: ما هذه لكأنها نيران عرفة، فقال بديل بن ورقاء: نيران بني عمرو. فقال أبو سفيان: عمرو أقل من ذلك، فرآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ فأدركوهم فآخذوهم، فأتوا بهم رسول الله فأسلم أبو سفيان، فلما سار قال للعباس: احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين، فحبسه العباس، فجعلت القبائل تمر مع النبي ﷺ تمر كتيبة كتيبة على أبي سفيان فمرت كتيبة فقال: يا عباس من هذه؟ فقال: هذه غفار، فقال: ما لي ولغفار. ثم مرت جهينة فقال مثل ذلك.

ثم مرت سعد بن هذيم فقال مثل ذلك، ومرت سليم فقال مثل ذلك. حتى أقبلت كتيبة لم يُرَ مثلها، قال: من هذه؟ قال: هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية، فقال أبو سفيان: يا عباس حبذا يوم الذمار. ثم جاءت كتيبة وهي أقل الكتائب فيهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وراية النبي ﷺ مع الزبير بن العوام فلما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ قال: ما قال؟ قال: كذا وكذا، فقال: كذب سعد، ولكن هذا يوم يُعظم الله فيه الكعبة ويوم تكسي فيه الكعبة قال: وأمر رسول الله ﷺ أن تركز رايته بالحجون[1].

أما عن قصة دخول الجيش المظفر مكة فروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح فجعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى وجعل الزبير على المجنبة اليسرى وجعل أبا عبيدة على البياذقة وبطن الوادي فقال: يا أبا هريرة ادع لي الأنصار فدعوتهم، فجاءوا يهرولون. فقال: يا معشر الأنصار هل ترون أوباش قريش قالوا: نعم. قال: انظروا إذا لقيتموهم غدًا أن تحصدوهم حصدًا، وأخفى بيده ووضع يمينه على شماله وقال موعدكم الصفا.

قال: فما أشرف يومئذٍ لهم أحد إلا أناموه، وصعد رسول الله ﷺ الصفا. وجاءت الأنصار فأطافوا بالصفا فجاء أبو سفيان فقال: يا رسول الله أبيدت خضراء قريش بعد اليوم لا قريش بعد اليوم، قال أبو سفيان: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْقَى السِّلاَحَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ**»[2].

قال ابن القيم رحمه الله: وتجمع سفهاء قريش وأخفاؤها مع عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو بالخندمة ليقاتلوا المسلمين، وكان حماس بن قيس ابن خالد أخو بني بكر يعد سلاحًا قبل دخول رسول الله ﷺ فقالت له امرأته:

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٥٩٧، ٥٩٨) «المغازي».

(٢) رواه مسلم (١٢/ ١٣١، ١٣٣) «الجهاد والسير».

لماذا تعد ما أرى؟ لمحمد وأصحابه، قالت: والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء، قال: إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم. ثم قال:

إِنْ يَقْبَلُوا اليَومَ فَمَا لِي عِلة ... هَذَا سِلاَحُ كَامِلُ وَآلة

وَذُو غَرَارِينِ سَرِيعُ السَّلِةِ[١]

ثم شهد الخندمة مع صفوان وعكرمة وسهيل بن عمرو، فلما لقيهم المسلمون ناوشوهم شيئًا من قتال، فقتل كرز بن جابر الفهري وخنيس بن خالد بن ربيعة من المسلمين، وكانا في خيل خالد بن الوليد، فشذا عنه فسلكا طريقًا غير طريقه فقتلا جميعًا، وأصيب من المشركين نحو اثنى عشر رجلًا ثم انهزموا وانهزم حماس صاحب السلاح حتى دخل بيته فقال لأمراته: أغلقي على بابي. فقلت: وأين ما كنت تقول؟ فقال:

إِنَّكَ لَوْ شَهِدتُ يَومَ الخَّندمة ... إِذْ فَرَّ صَفْوانُ وَفَرَّ عَكرمة

وَاسَتقبَلنَا بِالسُيُوفِ المُسلمة ... يَقطعنَ كُلّ سَاعد وجُمجمة

ضَربًا فَلا نَسمعُ إلا غَمْغَمْةً ... لَهم نُهِيتُ حَولنَا وَهَمْهَمْة

لَمْ تَنطِقِي فِي اللَّومِ أدنَى كَلمة[٢]

ودخل رسول الله ﷺ من أعلى مكة كما روى البخاري عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفًا أسامة بن زيد، ومعه بلال، ومعه عثمان بن طلحة من الحجبة حتى أناخ في المسجد، فأمره أن يأتي بمفتاح البيت فدخل رسول الله ﷺ ومعه أُسامة بن زيد وبلال وعثمان ابن طلحة، فمكث فيه نهارًا طويلًا، ثم خرج فاستبق الناس، فكان عبدالله بن

(١) **الألة**: الحربة لها سنان طويل. **وذو غرارين**: سيف ذو حدين.
(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٤٠٤، ٤٠٥).

عمر أول من دخل فوجد بلالًا وراء الباب قائمًا، فسأله: أين صلى رسول الله ﷺ فأشار له إلى المكان الذي صلى فيه. قال عبدالله: فنسيت أن أسأله: كم صلى سجدة»[١].

قال الدكتور أكرم العمري: وقد أمر الرسول ﷺ بتحطيم الأصنام، وتطهير البيت الحرام منها، وشارك بذلك بيده فكان يهوي بقوسه إليها فتتساقط وهو يقرأ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، وكانت ستين وثلاثمائة من الأنصاب، ولطخ بالزعفران صور إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وهم يستقسمون بالأزلام، وفي رواية أن صورة مريم كانت داخل الكعبة أيضًا. ولم يدخل الرسول ﷺ الكعبة إلا بعد أن مُحيت هذه الصور منها، ثم دخلها فصلى فيها ركعتين وذلك بين العمودين المقدمين فيها، وكانت مبنية على ستة أعمدة متوازية، وقد جعل باب الكعبة خلف ظهره وترك عمودين عن يساره وعمودًا عن يمينه وثلاثة وراءه ثم خرج فدعا عثمان بن طلحة فأعطاه مفتاح الكعبة، وكانت الحجابة في بني شيبة في الجاهلية فأبقاها بأيديهم، ثم استلم الرسول ﷺ الحجر الأسود، وطاف بالبيت مُهللًا مكبرًا ذاكرًا شاكرًا، وكان غير محرم، وعلى رأسه المغفر ثم لبس عمامة سوداء مما يدل على جواز دخول مكة بغير إحرام لمن لم يرد حجًا ولا عمرة [٢].

قال ابن القيم رحمه الله: وأمر رسول الله ﷺ بلالًا أن يصعد فيؤذن على الكعبة، ثم دخل رسول الله ﷺ دار أم هانئ بنت أبي طالب فاغتسل وصلى ثمان ركعات في بيتها، وكانت ضحى فظنها من ظنها صلاة الضحى وإنما هذه صلاة الفتح. وأجارت أم هانئ حموين لها فقال رسول الله ﷺ: «**قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ**» [٣].

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٦١١) المغازي.

(٢) المجتمع المدني في عهد النبوة «الجهاد في سبيل الله» (١٨١، ١٨٢).

(٣) رواه مالك (١/ ١٥٢) «قصر الصلاة»، والبخاري (١/ ٥٥٩) «الصلاة»، ومسلم (٥/ ٢٢٢) «صلاة المسافرين».

ولما استقر الفتح، أمن رسول الله ﷺ الناس كلهم إلا تسعة نفر، فإنه أمر بقتلهم، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، وهم: عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة ابن أبي جهل، وعبد العزى بن خطل، والحارث بن نفيل بن وهب، ومقيس بن صبابة، وهبار بن الأسود وقينتان لابن خطل كانتا تغنينان بهجاء رسول الله ﷺ، وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب.

فأما ابن أبي سرح فأسلم، وكان أسلم قبل ذلك ثم ارتد ورجع إلى مكة. وأما عكرمة فاستأمنت له امرأته بعد أن فرّ فأمنه النبي ﷺ وحسن إسلامه، وأما خطل، والحارث، ومقيس، وإحدى القينتين فقتلوا، وأما هبار بن الأسود فهو الذي عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ ففر ثم أسلم وحسن إسلامه واستؤمن رسول الله ﷺ لسارة ولإحدى القينتين فأمنهما فأسلمتا [1]. وتحقق بذلك موعود الله عَزَّ وَجَلَّ لرسوله الكريم، وجاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجًا وسقطت الجاهلية والوثنية، وفرح المؤمنون بنصر الله، وأعز الله دينه ورسوله وعباده المؤمنين، وكان ذلك بعد جهاد وجَلاد وصبر دام أكثر من عشرين سنة، ولكن رجالًا ممن شاركوا في هذا الفتح العظيم بجدهم وجهادهم وصبرهم ودعوتهم بل بدمائهم وأرواحهم لم يشركوا المؤمنين فرحة النصر، إنهم قضوا نحبهم في الطريق، بعد أن دفعوا كل ما يملكون لإعزاز الدين ورفع راية رب العالمين، أمثال مصعب ابن عمير، وحمزة بن عبد المطلب، وابن رواحة، وسعد بن معاذ، وعبدالله بن حرام، وحرام بن ملحان وغيرهم كثير ولكن أجرهم كامل غير منقوص عند الله الذي خلقهم وهداهم لهذا الدين وأكرمهم بصحبة رسوله الكريم سيد الأولين والآخرين، فليس من الضروري أن يشهد كل جندي النتائج الأخيرة للكفاح بين الحق والباطل. فقد يخترمه الأجل في المراحل الأولى منه، وقد يُصرع في هزيمة عارضة وتوفية الأعمال يوم القيامة كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٤١١).

نسأل الله العلي العظيم أن يعز بنا الدين وأن يستعملنا في الفتح المبين وأن نكون في جميع ذلك مخلصين.

الفوائد والآثار الإيمانية:

١- كان فتح مكة بداية فتح عظيم للمسلمين، فقد كان الناس تبعًا لقريش في جاهليتهم كما أنهم تبع لقريش في إسلامهم، وكانت مكة عاصمة الشرك والوثنية، وكانت القبائل تنتظر ما يفعل رسول الله ﷺ مع قومه وعشيرته، فإن نصره الله عليهم دخلوا في دينه، وإن انتصرت قريش يكونون بذلك قد كفوهم أمره فقد روى أبو قلابة عن عمرو بن سلمة قال: قال لي أبو قلابة: ألا تلقاه فتسأله القائل أيوب قال: فلقيته فسألته قال: كنا بنا ممر الناس وكان يمر بنا الركبان فنسألهم: ما للناس، ما للناس؟ ما هذا الرجل، فيقولون: يزعم أن الله أرسله، أوحى إليه، أو أوحى الله بكذا، فكنت أحفظ ذلك فكأنما يقر في صدري وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح فيقولون اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم... الحديث[١].

٢- **قال محمد سعيد رمضان:** وإن تأملت أحداث هذا الفتح الأكبر تستطيع أن تدرك تمامًا قيمة الجهاد والاستشهاد والمحن التي تمت من قلبه إن شيئًا من ذلك لم يذهب بددًا، ولم ترق نقطة دم لمسلم هدرًا ولم يتحمل المسلمون كل ما لاقوة مما قد رأيت في غزواتهم وأسفارهم لأن رياح المصادفة فاجأتهم بها، ولكن كل ذلك كان وفق حساب وكل ذلك يؤذي أقساطًا من ثمن الفتح والنصر وتلك هي سُنة الله في عباده. لا نصر بدون إسلام صحيح ولا إسلام بدون عبودية له، ولا عبودية بدون بذل وتضحية وضراعة على بابه وجهاد في سبيله[٢].

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٦١٦) «المغازي».

(٢) «فقه السيرة» للبوطي [٢٨٢].

٣- اختلف العلماء هل فتحت مكة عنوة أم صلحًا؟: فذهب الشافعي وأحمد -رحمهما الله- إلى أنه ﷺ دخلها صلحًا، وكان الممثل لقريش في هذا الصلح هو أبو سفيان، وكان الاتفاق والشرط فيه أنه من أغلق بابه فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، إلا من أهدر دمه ﷺ .

وذهب مالك وأبو حنيفة إلى أنه دخلها عنوة واستدلوا على ذلك بما وقع من القتال من خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وما حدث من أوباش قريش.

واتفق الجميع على أنه لم يغنم منها مالًا، ولم يسب فيها ذرية فمن ذهب إلى أنها فتحت صلحًا فسبب ذلك واضح، ومن ذهب إلى أنها فتحت عنوة فقد قالوا: إن الذي منع الرسول ﷺ من قسمتها أنها دار نسك ومتعبد وحرم الرب تعالى، فكأنه وقف من الله تعالى على العالمين، ولهذا ذهب بعض العلماء إلى منع بيع أراضيها ودورها، والأدلة على خلافه والله أعلم[1].

٤ -وقال ابن القيم رحمه الله ما ملخصه: فصل في الإشارة إلى ما في الغزوة من الفقه واللطائف:

- **فيها**: أن أهل العهد إذا حاربوا من هم في ذمة الإمام وجواره وعهده صاروا حربًا له بذلك، ولم يبق بينهم وبينه عهد، فله أن يبيتهم في ديارهم ولا يحتاج أن يعلمهم على سواء، وإنما يكون الإعلام إذا خاف منهم الخيانة فإذا تحققها صاروا نابذين لعهده.

- **وفيها**: انتقاض عهد جميعهم بذلك، ردئهم ومباشرهم إذا رضوا بذلك.

- **وفيها**: جواز صلح أهل الحرب إذا كان بالمسلمين ضعف وعدوهم أقوى منهم.

- **وفيها**: أن رسول الكفار لا يقتل.

- **وفيها**: جواز قتل الجاسوس وإن كان مسلمًا وهو راجع لرأي الإمام لمصلحه المسلمين.

---

(١) انظر: «الأحكام السلطانية» للماوردي [١٦٤]، و«زاد المعاد» لابن القيم (٤٢٩، ٤٤٠).

- **وفيها**: أن الرجل إذا نسب مُسلمًا إلى النفاق والكفر متأولًا وغضبًا لله ورسوله ودينه، فإنه لا يكفر بذلك بل لا يأثم ويُثاب على نيته وقصده، بخلاف أهل الأهواء والبدع.

- **وفيها**: أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تكفر بالحسنة الكبيرة كما وقع الجس من حاطب مكفرًا بشهوده بدرًا.

- **وفيها**: جواز دخول مكة للقتال المباح بغير إحرام كما دخل رسول الله ﷺ والمسلمون وهذا لا خلاف فيه.

- **وفيها**: البيان الصريح بأن مكة فتحت عنوة كما ذهب إليه جمهور أهل العلم ولا يعرف في ذلك خلاف إلا عن الشافعي وأحمد في أحد قوليه وسياق القصة أوضح شاهد لقول الجمهور.

- **وفيها**: تعيين قتل الساب لرسول الله ﷺ وأن قتله حدًا لابد من استيفائه فإن النبي ﷺ لم يؤمن مقيس بن صبابة وابن خطل والجاريتين اللتين كانتا تغنيان بهجائه مع أن نساء أهل الحرب لا يقتلن كما لا تقتل الذرية [1].

٥- وقال رحمه الله:

- **وفي القصة**: أن النبي ﷺ دخل البيت وصلى فيه ولم يدخله حتى محيت الصور منه، ففيه دليل على كراهة الصلاة في المكان المصور.

- **وفي القصة**: أنه دخل مكة وعليه عمامة سوداء ففيه دليل على جواز لبس السواد أحيانًا.

- ومما وقع في هذه الغزوة إباحة متعة النساء ثم حرمها قبل خروجه من مكة.

- **وفي قصة الفتح من الفقه**: جواز إجازة المرأة وأمانها للرجل والرجلين، كما أجاز النبي ﷺ أمان أم هانئ لحمويها.

---

(١) «زاد المعاد» باختصار (٣/ ٤٢٠، ٤٤١).

- **وفيها**: من الفقه جواز قتل المرتد الذي تغلظت ردته من غير استتابة فإن عبدالله ابن سعد بن أبي سرح كان قد أسلم وهاجر وكان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ثم ارتد ولحق بمكة، فلما كان يوم الفتح أتى به عثمان بن عفان رسول الله ﷺ ليبايعه فأمسك عنه طويلًا ثم بايعه. وقال: إنما أمسكت عنه طويلًا بعضكم ليقوم إليه فيضرب عنقه فقال له رجل: هلا أومأت إلى يا رسول الله؟ فقال: «**ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين**»[1].

(١) «زاد المعاد» باختصار (٣/ ٤٥٨، ٤٦٤)، والحديث رواه أبو داود [٢٦٦٦] الجهاد، و[٤٣٣٧] الحدود، والنسائي (٧/ ١٠٥، ١٠٦) تحريم الدم، والحاكم (٣/ ٤٠) المغازي. وصححه الحاكم والذهبي والألباني. وقال الخطابي في تفسير خائنة الأعين: هو أن يضمر في قلبه غير ما يظهره للناس، فإذا كف لسانه وأومأ بعينه إلى ذلك فقد خان. وقد كان ظهور تلك الخيانة من قبيل عينه فسميت «خائنة الأعين».